التذوق الجمالي في الشرع الإسلامي

خالد فتحي خالد الأغا

28/ 11/ 2020

الجمال سر من أسرار هذا الكون العظيم، لا من أسرار جاذبيته فحسب، بل من اسرار بقائه وحركته، وليس الجمال محصورا فيما نراه من التجليات الماثلة للعيان، كما نرىٰ في جمال الطيور وأعشاشها، والأزهار وألوانها، بل ثمة جمال آخر كامنٌ في روح تلك التجليات وفي السنن والقوانين الحاكمة للعلاقة بين تلك التجليات من جهة، وبينها وبين الكون من جهة أخرىٰ.

يشبه هذا إلىٰ حد كبير الجمالَ الخفيَّ في نفس الشاعر والرسام، والذي يتجلىٰ عند الشاعر في صورة القصيدة، وعند الرسام في اللوحة الفنية التي يرسمها، وفي الحالتين: كلما كان الجمالُ في نفس الشاعر أرهفَ حسا، وأصدقَ عاطفة كلما كان ظهورُه في القصيدة واللوحة أوفرَ حظا، فترىٰ قصيدة حَيّةً، وصورةً ناطقَة، ولهذا قيل: الشاعر والرسام كلاهما يؤديان عملا واحدا، إلا أن الشاعر يعبر عما في داخله من الجمال بالكلمات، والرسامَ يعبر عنه بالنقوش والألوان.

في المقابل أيضا: جمال القصيدة الظاهر دليل جمالها الباطن، وهو الشعور الذي صدرت عنه وانبعثت منه، ويزداد جمال الباطن قيمة إذا كانت روحُه ساريةً في جِنْسِه، لأن الجمال حينئذ يشكل وحدة شعورية، فالقصيدةُ الجميلةُ لا تعبّر عن نفس الشاعر وحده، بل عن الضمير الجمعي للمجتمع، وهذا هو الذي يُكْسِبُها الشهرة والانتشار، فتخرج بذلك عن ضمير الفرد إلىٰ ضمير الجماعة وتسري فيه، وهذا السريان من مضمون قوله تعالىٰ: خلقكم من نفس واحدة.

الرسام حين يبدع اللوحة الفنية، يعبر عن كل صورة من صور الجمال في داخله بإبرازه في شكلٍ ولونٍ يناسبه، حتىٰ إذا ما تكاملت هذه الصور وتَضامّتْ شكّلَتْ في مجموعها رسالة اللوحة.

وكذلك القصيدة، يتجلىٰ جمالُها في أمور ثلاثة:

- جمال المفردات من الألفاظ
- جمال التركيب في الجمل
- وجمال المعاني التي تعبر عنها الألفاظ المفردة والتراكيب

القرآن الكريم، الذي هو قاعدةُ التشريع الإسلامي، وبنيانُهُ وعَمارتُهُ، تتجلّىٰ فيه مظاهر هذا الجمال أعظم من تجليها في القصيدة ولوحة الرسام، وإذا كان مُرْهَفُ الحِسِّ مُتَذَوِّقُ الجمالِ يَسْتَشْعِرُ الرسالةَ الجماليّةَ وعُمْقَ أدائها للمَعْنىٰ بمشاهدة اللوحة وسماع القصيدة، فإنه من باب أولىٰ سيستشعر الرسالة الجمالية لعُمرانِ التشريع الإسلامي، وقوةَ النهر المعنوي المادِّ لذلك الجمال، ومما يُعين علىٰ هذا ملاحظة ما يلي:

- الأول: أن عمران التشريع الإسلامي هو الكونُ كله، ومساحة بُنيانه هي الأرض كلها، والعمر المُفْتَرَضُ لصلاحية البنيان هو الزمان كله، إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها
- الثاني: أن قواعدَ عمارةِ الشريعة تتفق تمام الموافقة مع القواعد الكونية القدرية، ولا تخرج عنها أبدا، فإن وُجد ما يخالف السنة الكونية القدرية فليس من عمران الشريعة وإن ظنه الناس كذلك
- الثالث: أن عُمران الشريعةِ متماسك عبر الزمان والمكان تماسكا في المظهر والجوهر، وقد ضرب النبي صلىٰ الله عليه وسلم مثلا له وللأنبياء قبله برجل بنىٰ دارا فأحسن بناءها، إلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ منها، فجعل الناسُ يقولون: ما أحسن هذه الدار لولا موضع هذه اللبنة!، ثم قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين.
- الرابع: جمالُ الشريعةِ ينبع من: كمال كل حكم من أحكامها في نفسه، ومن: تكامل أحكامها؛ حيث تُكمِّل أحكامها بعضُها بعضا، ومن الرسالة الجمالية الناشئة عن هذا التكامل، وهذه

الرسالة من ثَمَّ تمثل رسالةَ الشريعة السامية وهدفَها الأعلىٰ، وهذه المظاهر الجمالية كلها مستمدة من جمال الباطن، كما قلنا في القصيدة ولوحة الرسام، سواء بسواء.

- هذا الذي قدّمناه يُبَيِّنُ وجها من وجوه تحدي القرآن لأساطين الفصاحة والبلاغة من شعراء العرب وخطبائهم وقت نزول القرآن، فإن التحديَ لم يكن في نظم الكلام وحُسن تنضيده، ولا في جمال ألفاظه وتراكيبه فحسب، بل في قوة المعنىٰ الجمالي المُمِدِّ للنظمِ القرآني، وفي قوة التجليات المعبرة عن ذلك الجمال.
- السعة والشمول في المعنىٰ الجماليّ أيضا أحد مظاهر هذه القوة، ومن العجب أنه قد جرت العادة علىٰ اقتران الضعف بالاتساع والشمول، إلا في الصورة الجمالية المعبرة عن عمران الشريعة وسعتها وشمولها، فإن الاتساع والشمول لم يزدها إلا متانةً وقوة.
- تأَمّلْ مثلاً أول آية في ترتيب القرآن الكريم، وقارن بينها وبين البيت الأول من مُعَلَّقَةِ امرئ القيس، ولاحظ أن الشعر عند العرب كان ديوان علمهم وبلاغتهم، وكانت المعلقات السبع رأس ذلك الديوان، وكثير من علماء هذا الفن يقدمون قصيدة امرئ القيس علىٰ غيرها من المعلقات، والنقاد يقولون: قوة القصيدة في قوة مطلعها، فلتكن المقارنة إذن بين مطلع قصيدة امرئ القيس وهو قوله: (قفا نبك من ذكرىٰ حبيب ومنزل)، وبين الآية الأولىٰ من الفاتحة (الحمد لله رب العالمين)، وستكون المقارنة هنا بين الصورة الجمالية التي يقدمها كلٌّ من المطلع والآية، لأن هذا هو موضوع الكلام
- مطلع القصيدة: (قفا نبك من ذكرىٰ حبيب ومنزل)، مر الشاعر علىٰ ديار من يحب بعد رحيله، وقد خلت الدار ممن يحب، فهاجت الذكريات في نفسه، وهَيَّجَتْهُ علىٰ البكاء، فقال يخاطب صاحِبَيْهِ: قِفا نَبْكِ، وكان من عادتهم الإِسْعادُ في البكاء عند الحزن، والإسعاد أن تجتمع نساء

الحي عند نساء الميت فيبكينه، وامرؤ القيس قد طلب من صاحبيه إِسْعادَهُ مع أن العرب كانت تقول في أمثالها: ليست النائحة كالمستأجرة.

- وقد جمع هذا الشطرُ من البيت: الوقوفَ، والصاحبين، والتذكرَ، والحبيبَ، ومنزلَ الحبيب، فهذه هي أجزاء اللوحة التي كونت صورتَها الكليةَ، وهي التي شكلت باجتماعها رسالة اللوحة التي رسمها الشاعر في هذا البيت.
- وأما الآية الفاتحة في سورة الفاتحة (الحمد لله رب العالمين)، فإن تصورَ ما فيها من الجمال وتذوقَهُ موقوف علىٰ تصور أجزاء اللوحة، وتصور ما بينها من العلاقات، وهو الذي يثمر التذوق لذلك الجمال:
- فالجزء الأول فيها هو جُزْءُ (العالَمينَ)، وهو جمع عالَم، فثمة عوالم كثيرة وليست عالما واحدا، فالسموات عالَم، والشموس عالم، والأقمار عالم، والنجوم والكواكب عالم، والأبراج والمجرات عالم، والرياح عالم، والسحب عالم، وكذا الجبال، والشجر، وأنواع النباتات، والأحياء من إنس، وجن، وطائر، وزاحف، وماشٍ علىٰ رجلين، وماشٍ علىٰ أربع، ومخلوقات حية صغيرة من نحو نمل وذباب ونحل، وأخرىٰ دقيقة لاتُرىٰ بالعين، كل هذه العوالم وغيرها مما لا يحصيه العادُّ، كل جزء منها يُمَثِّلُ جزءا من هذه اللوحة الفنية البديعة، وقد جاءت الكلمة معرفة بالألف واللام الدالة علىٰ الاستغراق، وهي التي تأتي بمعنىٰ: كُل، لتدل علىٰ اجتماع هذه العوالم في ملك مالك واحد، وعلىٰ ترابطها واجتماعِها علىٰ غايةٍ واحدة، لأن الحكيم لا يقتني من الأشياء إلا ماله فائدة حسية أو معنوية، فلا بد من ترابط بين جميع ما يقتنيه بوجه من الوجوه
- وأما كلمة (رب) في قوله (رب العالمين)، فإنها تعني: الخالق لهذه العوالم، وتعني: المالك لها والمتصرف فيها، وتعني: من يربيها ويرعاها، وتعني: من وضع لها قوانينها ونظام حياتها، وتعني

من وضع أسس العلاقات والترابط بينها، وجعل كل جزء منها مكملا لغيره محتاجا إليه، ليكتمل بذلك جمال هذا المعمار الكوني باطنا وظاهرا، وقد أَوْدَعَ في هَذا العُمرانِ الكوني سره وقدرته وحكمته، فجمال الكون مستمد من جماله، ومظاهر الجمال في الكون دليل علىٰ جماله وجلاله

- ثم لما بلغ الجمال والجلال في صنعه هذا الحد، وكان ذلك برهان جماله وجلاله المطلق كان وحده المستحق للمحبة التي تبلغ بالمُحِبِّ حدَّ التأليه، ولذا جاء قبل لفظ (رب العالمين) بلفظ الجلالة (الله)، وفي تقديمه علىٰ لفظ الربوبية إشعارٌ بأنّ أصل العلاقة بين هذه العوالم وخالقها، والعلاقة بين هذه العوالم بعضها ببعض هي المحبة، وهي أرفع وأعلىٰ مقاما من العلاقة الأخرىٰ، علاقة المِلك التي يدل عليها معنىٰ الربوبية، فالأولىٰ علاقة محبة واختيار، والثانية علاقة ملك واضطرار.
- وإذا فقه الإنسان جمال هذه اللوحة البديعة، وتأمل بنيانَ تلك العمارة الرفيعة، وعلم أن جمالها من جمال صانعها، وجلالة رسالتها من جلالته لم يبق أمامه إلا أن يلهج لسانه بالثناء علىٰ مُبْدِعِها، الثناءِ علىٰ إنعامه وإحسانه، والثناءِ علىٰ جلاله وكماله، (الحمد لله)، فالألف واللام لاستغراق جميع الحمد لله، واللام قبل لفظ الجلالة لاستحقاقه الحمد وحده.
- فانظر إلىٰ هذه الآية الفاتحة، كيف صاغت لوحة الكون البديع، وكيف تآلفت أجزاؤها وتناسقت في إبراز معالم الجمال في هذه اللوحة علىٰ وجه يعجز عنه الوصف، ويفوق قدرة الشاعر والأديب، وكيف كانت مساحة اللوحة وشمولها تمكينا لمظاهر الجمال المُستَمَدِّ من جمالها الباطن وما أُودِعَ فيه من أسرار وحكم
- وأين هذا الجمال الآخّاذ في لوحة الكون البديع التي رسمتها الآية من الجمال في مطلع قصيدة امرئ القيس، وأين قوة هذه من تلك، وأين مساحة لوحة الآية، من مساحة المطلع!

- **قراءة الجمال في آية الفاتحة هنا، إنما هي للتمثيل للصور الجمالية للتشريع الإسلامي، وكلما كان الإنسان أوسع اطلاعا، عارفا بأسرار التشريع ومقاصده، ذوّاقا لجمال اللغة التي نزل بها، وكلما كان أرهفَ حسا، وأعمقَ شعورا كلما كان أقدر علىٰ تذوق ما في التشريع وأحكامه من الجمال الظاهر والباطن.**

والله الموفق.